المبحث الثانى

نظرية الردع فى النسق القرآنى والسياق القانونى

يقول الله فى كتابه الكريم ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ (الأنفال ٦٠). وقد ترجمت كلمة ترهبون ترجمة عادية على أنها يرهب terrorize فاستغل البعض هذا المصطلح فى حملته ضد الإسلام ووصمه بالإرهاب وزعم أن الله يحث المؤمنين به على أن يمارسوا الإرهاب ضد أعدائهم وأعداء الله.

هذا التفسير لا يفيد مطلقا علاقة الإسلام بالإرهاب، لأن عدو الله وعدوكم وصف للمعتدى سواء كان مؤمنا أو كافرا لأن القرآن يشدد على عدم العدوان، كما أورد القرآن نظرية التدافع والتوازن فى قوله تعالى ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ وفى آية أخرى ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ فالتدافع يؤدى إلى أن تصدي القوى بعضها لبعض حتى لا تتغول قوة واحدة فيقع الظلم من جانبها.

وآية الإعداد للقاء العدو المتربص تفترض أن هناك طرفين أحدهما يهم بالعدوان ويستعد له فهو معتد محتمل والطرف الثانى هو الضحية المحتمل فأمر الضحية المحتمل بأن يبذل أقصى درجات الاستعداد والتحصن توقيا للمفاجأة، وعلى هذا الطرف أن يتعمد أن يظهر للمعتدى المحتمل درجة استعداده لمواجهته، وفى هذه الحالة، إما أن يعدل هذا المعتدى المحتمل خطط العدوان خشية الخسران بسبب قوة الطرف الآخر الظاهرة، وإما أن يصر على

العدوان، فتقل خسائر الطرفين بسبب توازن القوى. فى هذه الفرضية يؤدى استعداد الضحية المحتمل إلى إرسال رسالة واضحة تبعث الرهب والرعب فى قلب المعتدى المحتمل لعله يقرر الكف عن العدوان، وهذه الحالة يتم فيها ردع الطرف المعتدى المحتمل عن مواصلة خطط العدوان. ومادام المعتدى يخطط للعدوان، فمن العدل أن يتخذ الضحية المحتمل كل ما من شأنه أن ينزل الرهب والفزع فى قلب المعتدى المحتمل. "وترهبون" فى الآية الكريمة تشير إلى الأثر النفسى وهذا يختلف اختلافا تماما عن الفعل الإرهابى.

صحيح أن العمل الإرهابى يصيب الجسد والنفس معا إلا أن الإرهاب فى الآية يقتصر على التأثير فى النفس بقصد الكف عن العدوان، وليس ابتدار الطرف البرئ بهذا الأثر المفزع. من ناحية أخرى، العمل الإرهابى عمل عدوانى من طرف ضد طرف آخر، بينما أثر الاستعداد المرعب للطرف الثانى ينطوى على معانى سامية وهى دفع الطرف الآخر الى الكف عن عدوانه الماثل، ثم أنه شعور يصيب المعتدى المحتمل تعمد الضحية المحتمل أن يوجهه ويحدثه لدى الطرف الآخر ليوقف خطط العدوان، فهذه الرسالة التى يحملها الاستعداد يجب أن تحمل درجة عالية من الرهب والخشية حتى تحدث أثرها فى تعديل خطط العدوان، وهى إلى ذلك دفاع شرعى عن النفس. فإذا لم يحدث استعداد الضحية المحتمل هذا الأثر المنذر عند الطرف المعتدى المحتمل لم يخسر الطرف الأول شيئا، وإنما يكون قد أخطر المعتدى المحتمل بعزم الضحية المحتمل على مقاومة العدوان إن وقع.

أما التفسير الدينى لنظرية الردع هذه فتنطلق من حقيقة ثابتة وهى أن الله خالق النفس سواء كانت معتدية أو ضحية، وأن النفس تحمل روح الله مع

الجسد يستوى فى ذلك النفس المؤمنة والنفس المشركة أو الكافرة، ولذلك أظهر القرآن الكريم حرصا فائقا على هذه النفس واعتبر أن قتل نفس واحدة ظلما هو قتل لكل النفوس يستوجب القصاص، ومن أحيا هذه النفس فكأنما أحيا الناس جميعا. ومادامت نفس المعتدى والضحية فى نفس القداسة عند الله فقد أراد الله أن يعصم هذه النفس ودماءها فى المعسكرين لعل استعداد الضحية يردع المعتدى عن المضى، فيتم عصمة النفس فيهما معا.

وإذا تأملنا الآية الكريمة اتضح ما يلى:

أولاً: أن الآية تخاطب معسكر الضحية الذى يعد الطرف الآخرليعد العدة للعدوان عليه، وأن استعداد الطرف الضحية موجه إلى الطرف المعتدى وحده "وأعدوا لهم" حتى ترهبون بهذا الاستعداد عدو الله وعدوكم وآخرين مرتبطين ومتحالفين معهم من المنافقين وربما فى معسكر الضحية نفسه مما نطلق عليه هذه الأيام الطابور الخامس، وهو الذى سوف يسارع إلى نقل أخبار استعداد الضحية إلى المعتدى.

ولذلك فإن الترجمة الصحيحة لكلمة ترهبون هى إما بالمفهوم الذى قدمنا أى الأثر النفسى المترتب على عمل مشروع فى نطاق الاستعداد للدفاع عن النفس وليس الفعل الإرهابى الذى عرفه الناس عبر التاريخ. كذلك يجوز أن نترجم كلمة ترهبون بمعنى تردعون ولكن الأدق ترهبون لأن الردع أثر من آثار الشعور بالرعب والفزع الذى يحدثه الاستعداد، وقد يحدث الرهب ولايحدث الردع فالأصح فى الترجمة والأدق فى المعنى هوترهبون.

لكن ليس هناك ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن القرآن يحث المؤمنين به على الإرهاب.

دروس الدبلوماسية النبوية فى رحلة الحديبية فى الواقع المعاصر

رحلة الحديبية معين لا ينضب من الدروس والعبر التى نحن أحوج ما نكون إليها فى سياساتنا الحاضرة، فتلك الأحداث الكبرى لا تروى للتسلية وإنما لا ستخلاص العبر. وما بين ماض غنى وحاضر مضطرب، فإننا بحاجة إلى أن نقرأ الماضى قراءة صحيحة بقصد الاستفادة والاعتبار وليس للنسخ والنقل مع اختلاف العصور والأزمان.

ما كتب عن الحديبية يملأ آلاف الصفحات ولكن الأهم ما يستفاد منها. والكتابة عن رحلة الحديبية كما أسماها الأستاذ العقاد تشتمل على الرحلة من بدايتها حتى نهايتها بما فى ذلك وثيقة الصلح والمفاوضات حولها. ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام نموذجاً يقتدى حتى فى هذه الرحلة الهامة فى تاريخ الإسلام. فالمعلوم أن المسلمين فى مكة اضطروا للهجرة إلى المدينة المنورة عندما ضيق كفار مكة عليهم.ففروا بدينهم الجديد وهم بعد قلة مستضعفة الي رحاب اوسع وانصار ومناصرين. وبعد أن تقرر الحج وتحويل القبلة إلى مكة، اعتزم الرسول الكريم وصحبه أن يذهبوا إلى الحج. الحاج لايكون حاملاً للسلاح. ولذلك، وهو الدرس الأول، أعلن رضوان الله عليه ذلك بكل الطرق بانه ذاهب للحج لا للقتال ،وأبلغ مكة أنه لا يمكن أن يخاتل فى مسائل العبادة، أى أنه لا يمكن أن يعلن نيته فى الحج، بينما هو فى الحقيقة يريد غزو مكة، فاتجه المسلمون وغيرهم إلى مكة، معتمرين غير مسلحين، ولكن كفار قريش منعوهم من أداء فريضة الحج، رغم أن البيت الحرام مقدس

عند الجميع حتى قبل الإسلام. وكان عليه الصلاة والسلام يتوقع هذه الخطوة، ولكنه كان ينظر نظرة استراتيجية، فالرحلة ليست نهاية المطاف، وأن الرسالة ستبلغ غايتها فى مكة وما وراءها بكثير.

والدرس الثانى هو ما فصل فيه الأستاذ العقاد فى دراسته لعبقرية محمد السياسية، وهو أن النبى عمد إلى دعوة المسلمين وغير المسلمين إلى الحج، فالحج ليس قاصراً على المسلمين، وليس قاصرا على قبيلة بذاتها، لأن القبائل توزعت بين الكفر والشرك والمسيحية واليهودية والابراهيمية وغيرها من العقائد المنتشرة فى الجزيرة على اتساعها. وبذلك يكون قاصدوا الحج من المسلمين وغيرهم جبهة واحدة لحق الجميع فى العبادة فى مواجهة أصحاب السيادة علي البيت الحرام وحتى لا تكون السيادة السياسية لمكة شاملة للسيادة الدينية، فحراس البيت عليهم ألا يحولوا بين البيت وضيوف رب البيت من كافة النحل والملل والعقائد، وهذا التفكير الاستراتيجى جعل موقف قريش معاديا بعد ذلك لجبهة عريضة لأن قريش منعت الحجاج جميعا ولم تميز المسلمين عن غيرهم، مما اربك قريش وغيرها من القبائل واختلفوا حول رد الفعل الواجب على قدوم الحجيج.

أما **الدرس الثالث** فهو المرونة الفائقة التى أبداها النبى مع مفاوض الكفار، فهو يمثل، صاحب السيادة على البيت الحرام، والرسول الكريم يمثل ضيوف الرحمن. هذه المرونة الفائقة التى أبداها الرسول الكريم مع المفاوض هى التى جعلت أصحابه يضيقون بهذا الاتفاق وينكرون الطريقة التى تم التفاوض بها عليه، وكادت الحادثة أن تحدث شقاً بين كبار الصحابة وتمزق وحدة المسلمين فى معسكرهم. وقد ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه

بأنهم جاءوا إلى مكة حجاجاً لاغزاة ولذلك أعلنوا منذ البداية أنهم بلا سلاح ولايخشون عدوان مكة عليهم لثقتهم فى نبل أهلها ونخوتهم التى تأبى عليهم هذا العمل الوضيع.

فهل المسافة الشاسعة بين موقف النبي وموقف أصحابه هي المسافة بين صاحب الوحي والتبصر بالمستقبل وبين التقديرات البشرية مهما كانت عبقريتها أم ياتري هو ذلك الفارق بين درجات الايمان والثقة في الله بين النبي واصحابه. بل نشير الي بيعة الشجرة التي جدد الصحابة فيها الحب والثقة بصاحب الرسالة ، ثم بشروا باية من الله قبل حدوثها بعامين. وقد يقول قائل ان الطابع النبوي كان نورا اهتدي به صاحب الرسالة ، مما يضع سلوكه فوق المستوي العادي للبشر.هذا الافتراض يقودنا لتدبر المناسبة الي افتراض اخر وهي ماذا لو لم يكن الرسول قائد الرحلة وقد فاجاتهم قريش فاستقبلتهم استقبال المحاربين ،فان ابا بكر كان مرشحا للتعامل مع قريش وهو بعيد عن قائده لايملك تعليمات فورية في هذا الموقف الحرج. وهل كان موقف ابي بكر الرصين الواثق المماثل لموقفه من خبر الاسراء والمعراج علي خلاف موقف عمر الذي غلبه ايمانه علي شبهة الشك في الرسالة لكي يعطي مؤشرا لما استجد يوم السقيفة فبايع الصحابة ابا بكر اضافة الي مؤشرات التوجيه النبوي في هذا الاتجاه.

فهل ما أسلفنا بحاجة الي استخلاص الدروس علي سبيل الإيجاز أم أن العرض قد يوحي بحسب المواقف المتغيرة بدروس أخري فلا نصادر علي حق القارئين في الاستخلاص أو أن نحصر فكرهم في سياق معين.

وختاما اكان الوحي ام المهارة السياسية هي التي فسرت الدبلوماسية النبوية؟.فليحذر الذين يعلون من القدرات البشرية للرسول لينكروا عليه شرف الرسالة وكذلك فليحذر الذين ينسبون كل شيء للرسالة مكرا من عند انفسهم ليجعلوا التكليف مستحيلا علي البشر: فكلا الفريقين ضل سعيهم وطاشت سهامهم في العالمين.